

من صور السخرية النقدية في المنام الكبير للوهرائي

د. نوري أحمد عبيد(1)

تمهيد:

شهد القرن الرابع الهجري ظهور لون نثري أدبي جديد، وهو فن المقامات الذي نحا فيه مبتدعه بديع الزمان الهمداني(398هـ) منحىً قصصياً سردياً، وقد تركت هذه المقامات أثراً ملحوظاً في الكتاب الذين جاؤوا من بعده، ولاسيما في القرنين الخامس والسادس الهجريين، إذ نضجت فيها بعض الأشكال القصصية، وظهرت أشكال سرديّة جديدة منها فن المنامات، الذي يُعدُّ لوناً أدبياً له طابعه الخاص المستقل المتميّز عن الألوان النثرية الأخرى؛ لأن الوهرائي مبدع هذا اللون الأدبي النثري نهج فيه أسلوباً جديداً في المعالجة الأدبية والسرد، حيث اتخذ من المنام عنصراً مهماً في الحدث السردى، لذلك عدّ بعض الباحثين المنام نصّاً رمزيّاً مُشبعاً بالدلالات والرؤى التي تستدعي الوقوف عندها ودراستها دراسة مستقلة(2).

وعلى الرغم من نشر منامات الوهرائي ومقاماته ورسائله سنة 1968م،(3) وإشارة غير واحد من الباحثين إلى أهمية إبداعه، على الرغم من ذلك كله فإن هذه الشخصية المبدعة ما زالت مُغيّبة عن ساحة البحث الرصين.

ولعل السبق الزمني لمقامات الحريري والهمداني كان من أسباب علوق هذه المقامات في أذهان الناس، فالتفتوا إليها بالدرس والتمحيص، ولكن هذا لا يعني أن منامات الوهرائي تقل شأنًا عن المقامات؛ فهي تتميّز بكفاءة نصيّة خاصة جديرة بالتتبع، تتجلى في سلاسة وأسلوب راقين، ناهيك عن القضايا

1 - كلية اللغات جامعة طرابلس

2. ينظر: المنامات في الموروث الحكائي العربي، دراسة في النصّ التعالي والبنية السردية، د. دعد الناصر، ص76.

3. حققها: إبراهيم شعلان، ومحمد نعش، وراجعها د. عبد العزيز الأهواني، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1968م.

التي تطرحها، إلى جانب القدرة العالية لدى كاتبها في جذب القارئ وتشويقه إلى متابعة ما أورده.

ومن هنا جاءت هذه الورقة البحثية لترفع عن صاحبها وعن آثاره بعض الغبن الذي لحق به جراء إهمال الباحثين له، ووقع الاختيار على المنام الكبير من بين آثاره بوصفه لوئاً أدبياً يتميز عن الألوان النثرية الأخرى في موضوعه وبنائه الفني، وقد اقتضت طبيعة الموضوع التمهيد له بذكر نبذة عن حياة الوهراني ومنامه، ثم حاولت الدراسة أن تكشف عن بعض مظاهر صور السخرية النقدية، التي زخرت بها مشاهد المنام الكبير، وعبرت عن خفة روح الوهراني وبراعته في الهزل والسخرية والتهكم الماجن، وجاءت خاتمة البحث لتلخص أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

ولا يرجع سبب اختيار للمنام الكبير مثلاً على السخرية النقدية؛ لأنه أطول نصوص الوهراني فحسب، بل لأن النصوص الأخرى تكتنز فيه وتتطلق منه، فالوهراني أراد أن يكون المنام الكبير رسالة فنية للسخرية، للوقوف عند المخفي في المجتمع والتعريض به وفضحه في صورة مضحكة ومبكية.

أولاً/ المؤلف:

الشيخ الفقيه ركن الدين أبو عبد الله محمد بن محرز الوهراني، ولد في عهد الدولة المرابطية بداية القرن السادس الهجري بمدينة وهران الجزائر، وتعلم مختلف العلوم الإسلامية واللغوية المعروفة في عصره.⁽¹⁾ شهد الوهراني سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية بالديار المصرية، وطمح إلى الالتحاق بديوان الإنشاء، الذي كان القاضي الفاضل على رأسه في ولاية صلاح الدين الأيوبي، لكن حيل بين الوهراني وبين ذلك، حينها علم أنه لن يتمكن من منافستهم، فانتقل إلى الشام، والعراق، حتى استقر به المقام بقرية دارياً بدمشق، وعُيّن خطيباً في مسجد لها، لضمان مورد عيشه

1. ينظر: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ص350.

من جهة، وتجنبًا لسلطة لسانه وسخريته اللاذعة من جهة أخرى، حتى توفي بها سنة 575هـ. (1)

ثانيًا/ وصف المنام الكبير:

ترك الوهрани مجموعة من نثره على صورة من النثر المسجوع، جمعها وحققها كلها، ووضعها تحت عنوان (منامات الوهрани ومقاماته ورسائله)، كلٌّ من الأستاذين: إبراهيم شعلان، ومحمد نعش، وقام بمراجعتها: عبد العزيز الأهواني عام 1968م.

وعند تصفحنا لعمل الوهрани نجده مؤلفًا من أربعة وأربعين نصًا بين مقام ومنام ورسالة، تختلف من الطول والقصر، فأما المنامات فثلاثة؛ ينتقل خلالها الوهрани بخياله إلى العالم الأخرى تارة، وعالم الجن والشياطين تارة أخرى، ويسعى إلى لقاء صلاح الدين الأيوبي الذي كان حيًا آنذاك، وأهم هذه المنامات وأطولها المنام الكبير، حيث بلغ حجمه ثلاثة وخمسين صفحة من الكتاب المجموع، تصور فيه الوهрани، أنه بُعث إلى يوم المحشر، والتقى هناك بالعلماء والشعراء والوزراء والمتصوفين وغيرهم، وتجاوز مع بعضهم، ووصف أحوال آخرين. وأصل هذا المنام رسالة، يرُدُّ به الوهрани على رسالة أتته من أحد معاصريه، واسمه الحافظ العليمي،⁽²⁾ الذي عاتبه فيها عتابًا شديدًا، لأنه لم يخاطبه في رسالة سابقة بما هو أهل له؛ لذلك يجد الوهрани مناسبة ليسخر من هذا العليمي سخريّة مرّة، فيصور نفسه قد تسلّم رسالته ولم يستطع النوم لشدة العتاب فيها، لكنه نام بعد طول سهر، "قرأ فيما يرى النائم

1. ينظر عن ترجمة الوهрани على سبيل المثال: وفيات الأعيان، لابن خلكان، 199/4، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، للحنبلي، 252/2، والأعلام للزركلي، 241/7، ومعجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، ص350.

2 الحافظ العليمي: أبو الخطاب العليمي عمر بن عبد الله الدمشقي التاجر السقار، وكتب الكثير في تجاربه بالشام ومصر والعراق وما وراء النهر، توفي في شوال 574هـ. ينظر: شذرات الذهب، للعماد الحنبلي، 248/4.

كأن القيامة قد قامت، وكأن المنادي ينادي: هلمّوا إلى العرض على الله تعالى، فخرجت من قبري أيمم الداعي إلى أن بلغت إلى أرض المحشر".⁽¹⁾

ويبدأ الوهراني بوصف أهوال ذلك اليوم، ثم يلتقي بالحافظ العلمي في ذلك الموقف، فيكون أحدهما رفيقاً للآخر هناك، ثم يلتقيان بأخرين معاصرين لهما، فيجعل الوهراني في ذلك مناسبة للتعريض بهم، وبأفعالهم التي كانت في الدنيا، ويقابل الوهراني ومن معه أثناء تجوالهم بأرض المحشر بالملائكة من خزنة الجنة والنار، ويلتقي بالرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته، فيذكر بالأحداث السياسية التاريخية التي كانت بينهم، بهدف توضيح مواقف معاصريه من الفئتين، وفي أثناء الرحلة يعرض لقضايا اجتماعية ودينية وسياسية كثيرة ومتفاوتة، محافظاً في كل ذلك أسلوب السخرية من معاصريه، وبخاصة ممن يتزلفون لذوي السلطة، ولا يخلو أسلوبه من اعترافات شخصية عن أفعاله وأفعال معاصريه وأصدقائه ممّا يصعب البوح به، لتسقله وتدني مستواه الأخلاقي، إلا أنه يجد في اعترافاته الشخصية مدخلاً للتشهير بالآخرين بصورة فاضحة، وينتهي المنام الكبير أخيراً وهو يحاول الورود على الحوض الذي منعه منه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وآل بيته، فاستجد بالأمويين فأوصلوه إليه حتى شرب منه، ولكنه بعد ذلك فوجيء بعلي وشيعته فانتبه من هول المفاجأة من نومه بعد أن سقط عن السرير خائفاً مذعوراً، ثم ختم ذلك بقوله لمكاتبه: "كيف يرى سيدنا النفس الطويل والهديان الذي أثاره التعتب والانتقام؟ صلى الله على سيدنا محمد ونبيه وآله وأصحابه وسلّم تسليمًا كثيرًا".⁽²⁾

ثالثاً/ ثناء العلماء على المنام الكبير:

قال ابن خلكان عن المنام الكبير: " وعمل المنامات والرسائل المشهورة به والمنسوبة إليه، وهي كثيرة الوجود بأيدي الناس، وفيها دلالة على

1 . منامات الوهراني، ص 23.

2 . م، ن، ص 60.

خفة روحه ورقة حاشيته وكمال ظرفه، ولو لم يكن له فيها إلا المنام الكبير لكفاه، فإنه أتى فيه بكل حلاوة ولولا طوله لذكرته⁽¹⁾.

وأبان الصفدي عن أهمية الرجل فذكر أنه: "أحد ظرفاء العالم وأدبائهم، سلك ذلك المنهج الحلو والأنموذج الظريف وعمل المنام المشهور له...سلك فيه مسلك أبي العلاء في (رسالة الغفران)، لكنه ألطف مقصدًا وأعذب عبارة... وعلى الجملة فما كاد يسلم من شر لسانه أحد ممّن عاصره، ومن طالع ترسله وقف على العجائب والغرائب، وما كاد يخلو - سامحه الله - من تجرّ"⁽²⁾، وقال عنه شهاب الدين الحلبي: "المقرئ الأديب الكاتب، صاحب المزاج والدعابة والمنام الطويل، الذي جمع فيه أنواعًا من المجون والأدب"⁽³⁾. ينطلق ابن خلكان في تعليقه طبيعة كتابة الوهрани من أنه وعى حقيقة تفوق القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني عليه في مضمار الإنشاء ومفارقتة لطبقتهما، فسلك طريق الهزل وحقّق نجاحًا باهرًا بمناماته ورسائله حتى صارت كثيرة بأيدي الناس؛ وتوّج ذلك كله منامه الكبير الذي جاء عملاً إبداعياً قائماً بذاته، وكافيًا لإشهار صاحبه في الأوساط الأدبية؛ لأنه أتى فيه بكل حلاوة، ولم يسبق إلى مثله قط. أي أنه - في نهاية المطاف - قد فاق الأديبين اللذين لم يكن من طبقتهما.

كما تشمل إشارات الصفدي على إعجاب مماثل، فهو يرى أن الوهрани أحد ظرفاء العالم وأدبائهم، وهذا حكم نقدي بالغ التقدير، ويؤكد أنه تابع في منامه الكبير أبا العلاء المعري في غفرانه لكن الوهрани كان ألطف مقصدًا وأعذب عبارة، وهذا الحكم النقدي أوضح وأدق من حكم سابقه، إلا أن الصفدي يأخذ عليه في نهاية الأمر نبوّ لسانه وجرأته المفرطة، فلو كان - سامحه الله - تخطى عن ذلك لكان أفضل.

1. وفيات الأعيان، لابن خلكان، 385/4.

2. الوافي بالوفيات للصفدي، 386/4.

3. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، للذهبي، 417/6.

هذه إشارات دالة عن انبهار مؤرخي الأدب القدامى بحق إبداعات الوهراني، تدعو في مجملها إلى تأمل دقيق لنتاجه الأدبي، في الوقت الذي تثير فيه أسئلة عديدة حول انزواء كتابته عن أعين النقاد - رغم أهميتها - زمنًا طويلًا. ويسكت كل من ابن خلكان والصفدي عن محتوى المنام الكبير وما فيه، فيكتفي الأول منهما بذكر حلاوته متمنيًا لو استطاع إيراده كاملاً، لكنه لطوله لم يذكر منه شيئاً البتة، ويرى الآخر أن الوهراني أحدى ظرفاء العالم، ووصف منامه بالشهرة، وأنه أطف مقصدًا لم يسبق إلى مثله على صعيد الحيلة الفنية دون إشارة إلى فحواه، ولعل الدافع الخفي وراء هذه المواقف؛ غلبة الثقافة الرسمية المتمثلة بالالتزام بالتقاليد المرعية وحراسة الأخلاق الاجتماعية العامة.

رابعًا/ دوافع الوهراني لكتابة المنام الكبير:

1. عاش الوهراني عصرًا مليئًا بالأحداث والمنازعات والتقلبات والتناقضات الدينية والسياسية والاجتماعية والفكرية، فعانى ذلك الواقع المفروض، وتلك الهوية السحيقة بين ما هو موجود في الواقع وما ينشده في عالم مثالي يتوق إليه، فهو يتق، وذلك ما جعله يفكر في عوالم جديدة تُساعده على الإبداع والظهور بشكل لافت ومتميز، واثقًا في فصاحته اللغوية وثقافته الأدبية ذلك.

2. كانت معاناة الوهراني شديدة مع عصره وواقعه، إذ أخفق في رحلته إلى المشرق التي عوّل عليها كثيرًا أسوة بغيره من أهل المغرب المرتحلين، وأشار إلى ذلك بقوله: "لما تعذرت مآربي، واضطربت مغاربي، ألقىت حبلي على غاربي، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي، ومن أخلاف الأدب رضاعتي، فما مررتُ بأمير إلا حلتُ ساحته، واستمطرتُ راحته، ولا وزير إلا قرعتُ بابه، وطلبتُ ثوابه، ولا بقاض إلا أخذتُ سيبه، وأفرغتُ جيبه، فتقلبتُ بي الأعصار، فقصدتُ مدينة السلام، لأقضي حجة الإسلام، فدخلتها بعد مقاساة الصُّر، ومكابدة العيش المر".⁽¹⁾

1 منامات الوهراني، ص1.

3. خامساً/ صور من السخرية النقدية في منام الوهрани:

عَدَّ الجاحظ في كتابه (البخلاء) وفي (رسالة التريبع والتدوير) من أوائل الكتّاب الذين سعوا للكشف عن جوانب الفساد في العصر العباسي، وعن واقع المقهورين فيه وذلك عن طريق السرد ومن خلال توظيف السخرية النقدية، لتكون صرخة احتجاج تعلن عن ما بلغه مجتمع العصر العباسي من فساد، ولكن الوهрани تفوق على أستاذه الجاحظ في هذا النوع من السخرية، بظرافته وخفة روحه وبراعته في الهزل والسخرية وإجادته التهكم، وفي توظيف المنام توظيفاً فنياً بارعاً.

إن المتتبع للسخرية لدى الوهрани بعامة نتاجه، وفي المنام الكبير بصورة خاصة، يرى أنها لا تقف عند حدود كونها صورة بلاغية أو تنميكا أسلوبياً، وإنما هي في الحقيقة عكس لموقف الكاتب من مجتمعه، ذلك الموقف الذي وصل فيه الكاتب جمالية الأدب بمغامرة الفكر، مما جعل السخرية عند الوهрани "تصبح مفهوماً للعالم ونظرة، كأنما أراد لها أن تحل محل الفلسفة والأخلاق"⁽¹⁾.

اتخذ الوهрани من منامه رسالة لإدانة كثير من القيم السلوكية والأخلاقية المنحرفة عند بعض طبقات المجتمع؛ كالمتصوفة والأطباء والقضاة والعلماء، وغيرهم، حتى يمكن القول: إنه لم يستثن أحداً من نقده التهكمي اللاذع، متخذاً من المنام قناعاً اختفى وراءه، "ف وراء قناع المنام إذاً تكمن مواقف الوهрани الجريئة في كشف حقائق الأمور حول كثير من القضايا السياسية والاجتماعية والأدبية والفكرية في عصره وفي التاريخ، عن طريق اختيار المشاهد والمواقف الدالة برمزياتها الشفافة أحياناً وبوقاحتها التي تחדش الحياء القاريء وتستفزه تارة أخرى"⁽²⁾.

1. مقدمة للشعر العربي، أدونيس، الطبعة الثالثة، دار العودة، بيروت 1979، ص 40.
2. الأحلام والتفكير الرمزي، جريدي المنصوري، مجلة علامات في النقد، 2008م، الجزء: 44، المجلد: 11 ص 661.

نقد المتصوفة:

ممّا لا يخفى علينا أن التصوف ليس مجرد ظاهرة دينية، وإنما كان أيضاً ظاهرة اجتماعية خطيرة، وقد أخذت تزداد وضوحاً في العصر الأيوبي، فالـم يلبث أن وفد على مصر في العشرين الأيوبي والمماليكي كثير من زعماء المتصوفة ومشايخهم وبخاصة من المغرب- الذين أشاعوا بمصر حياة الزهد والتقشف ممّا ترك أثراً خطيراً في المجتمع المصري".⁽¹⁾

لم يترك الوهراني هذه الطائفة من أذعياء التصوف دون أن ينقد معاييرهم ويفضح قبائحهم في منامه الكبير، فهم قد انحرفوا بمبادئ التصوف الإسلامي وجوهره إلى سبيل لا تمت إلى الإسلام بصلة؛ ففي مشهد مهيب من مشاهد منامه يظهر الرسول-صلى الله عليه وسلم في موكب عظيم، وقد أقبل من المقام المحمود والناس يضجون بالبكاء ويلوحون إليه بالأيدي، ويستغيثون به من كل مكان، فلما ينتهي إلى شاطئ المشرعة يقف عندها، فتتقدم إليه الصوفية من كل مكان، "وعلى أيديهم الأمشاط وأخلة الأسنان، وقدموها بين يديه، فقال صلى الله عليه وسلم: من هؤلاء، فقيل له: هؤلاء قوم من أمّتك، غلب العجز والكسل على طباعهم، فتركوا المعاش، وانقطعوا إلى المساجد يأكلون وينامون، فقال: فيما كانوا ينفعون الناس، ويُعينون بني آدم؟ فقيل له: والله ولا بشيء البتة، ولا كانوا إلا كمثل شجر الخروع في البستان، يشرب الماء ويُضيق المكان، فساق ولم يلتفت إليهم"⁽²⁾.

إن الحوار الذي دار بين الوهراني وبين الرسول صلى الله عليه وسلم، يجعل القارئ يفهم مباشرة أن الوهراني لا يورد هذه المقاطع بهدف الضحك والتسلية، وإنما ليكشف لنا في منامه عن حقيقة أذعياء التصوف ومصيرهم، فصورهم بطريقة هجائية ساخرة، متخذاً من الضحك وسيلة لممارسة النقد الاجتماعي، وللتعبير عن إدانة ضمنية لسلوك مُشين وتوجيه المتلقي في اتجاه

1 . مصر والشام في عصر الأيوبيين، د. سعيد عبد الفاتح عاشور، ص 128.

2 . منامات الوهراني، ص 48، 49.

سلوك مغاير، فمثل هؤلاء مثل شجر الخروج يشرب الماء ويُضَيِّق المكان، وبذلك فإن الوهرائي يسجل موقفًا خاصًا به حيال تلك المعتقدات والأفكار عندما يخترق قدسيّتها بتصويره الساخر ذلك.

1. نقد الفقهاء:

المنام الكبير عامر بالشخصيات من مختلف الأمكنة والأزمنة، يستدعيها الوهرائي في منامه ويقحمها في سياقات ومواقف تقيض بالنقد اللاذع والسخرية التي نصل إلى حدّ التناول والوقوع في المحظور الشرعي أحيانًا كما قد يُستنتج من القراءة السطحية الأولى؛ وممّن استدعاهم الوهرائي في منامه الفقهاء، بقصد تعرية فئة أدعيائه ممّن لا يصلحون لهذا المنصب الرفيع في الدولة، بسبب جهلهم بمسائل الفقه وحماقتهم وتبجحهم بالمظاهر الخادعة، وظهر ذلك جليًا ضمن حوار جرى بين معاوية أمير المؤمنين والقاضي الفقيه عيسى، إذ جاء فيه: "قال معاوية: ليهنك يا فقيه، لقد عرض لك اليوم من أفعال الخير ما غبطك عليه النبيون والملائكة المقربون، ولولا ما ظهر من تعصبك لأهل الشر، لطرت مع الملائكة إلى سدرة المنتهى من أول، فقال له: مثل من يا خال المؤمنين، فقال: مثل هذا المكي الأسود الكادوم، أخذت له دارًا في القصر وضيفة مقورة، وعشرة دنانير في الشهر، وليس يستحق من هذا كله رغيغ شعير، فقال: ولمّ يا أمير المؤمنين؟ فقال: لأنه أبخل من ابن بنت الكلب، لا يشبع بالخبز في بيته، ولا يأكل اللحم إلا في بيوت الناس، وليس فيه راحة لأحد، وهو من كوادن المدارس، له أربعون سنة يقرأ لا يحفظ مسألة من الفقه ولا آية من كتاب الله تعالى، فقال الفقيه عيسى: صدقت يا أمير المؤمنين، وأزيدك زيادة فقال: ما هي؟ فقال: الرقاعة والحماقة، ما له فيها نظير يلبس العمامة الكبيرة المعروفة بأشقع طرز، ويركب بغلته الملقبة بقيسارية الفراء، ويمشي وبين يديه عشرة من الغلمان كلهم يتساقطون من الجوع، ويقول لهم: قال لي السلطان وقلت للسلطان، والسلطان

لا يستطيع أن يُبصره في المنام، وأنا وحاشيتي على مثل رأي السلطان فيه، ولكنني قد انتشبت معه فما له من لفكاك".⁽¹⁾

لم يأت اختيار الوهراني لهذه الشخصية اعتباراً؛ بل كان بعناية فائقة منه، إذ اجتمعت فيها صورة هذا الفقيه-الذي فضحه- خصال مذمومة متعددة، منها الجهل والبخل والحمق، وتعاطي الرشوة ودناءة النفس والتباهي والإدعاء الكاذب والنفاق، ويحرص الوهراني على أن يبرز هذا الفقيه في صورة العالم المتخفي وراء عمامته الكبيرة وركوبه أفرخ البغال، ومشيته المتصنعة برفقة المنهوكين من الجوع.

والوهراني بتقديمه لهذا الأنموذج من الفقهاء الذين ينعمون بجهلهم، في حين يشقى ذو العلم بعلمهم وأدبهم، ينقد المجتمع الذي انقلبت فيه الموازين والمعايير الاجتماعية.

2. نقد الأطباء:

من الطبقات التي تناولها الوهراني في منامه بالنقد الساخر طبقة الأطباء، حيث سلط الضوء في أحد مشاهد منامه على طبيب أطلق عليه اسم (ابن المهذب)، كان من أعيان القوم عُرف برقة دينه وقلة خبرته في مجال مهنته، كما يظهر من سياق أحداث الحوار الذي دار بينه وبين أبي المجد بن أبي الحكم، الذي يبدو أنه كان طبيباً أيضاً، وبين جمع من القوم بينهم الراوي، وممّا جاء في هذا الحوار: "هذا عزرائيل ملك الموت وهو يعنى بالمهذب عناية عظيمة، وهو الذي شفّع فيه وخلّصه من العذاب المقيم، فقلت لكم: من أين هذه المعرفة والمحبة بين المهذب وبين عزرائيل؟ فقال لي: أبو المجد بن أبي الحكم: من جهة الطب، أما علمت أن المهذب كان من خيار أعوان ملك الموت ما دخل قط إلى عليل إلا ونجزه في الحال، وأراح ملك الموت من التردد إليه وشم الروائح المنتنة، والنظر إلى شخصه المزعج، وخلّصه من الانتظار الطويل، فهو يرعاه لأجل هذا ويُحبه من ذلك الزمان، وأما أنا فما أقدر أوقع عيني في عينيه، ولا يُبصر لي رقعة وجه أبداً؛ لأنني كنت أضاربه

1. منامات الوهراني، ص55.

حتى أخرجه من فكه وأخلصه بعد اليأس، فلا جرم أنه ما أمهني أتمم الأرن الذي ابتدأته، ولا تركني أتملى في الدنيا بأمر أبي الحكيم ساعة من الزمن".⁽¹⁾ فعزرائيل مُعرم بنزع أرواح الناس ومُعجب بكل إنسان يساعده في ذلك العمل، وعندما يجد طبيباً ماهراً يتخذه عدواً له، فينزع روحه حتى لا يحول بينه وبين الناس، ومن هنا كان حبه لابن المهذب ذلك الطبيب غير البار الذي يميت المريض بسوء صنيعه، فيرضى عنه ملك الموت، ويشفع له في الآخرة، ويعني به عناية عظيمة، فإذا جاء الوهрани يطلب عشرة دنانير، كانت له في ذمة ابن المهذب، ويحاول إعاقة من دخول الجنة، يغضب عزرائيل لأجل ذلك، ويكاد غضبه يحل بالوهрани، لولا أنه فطن فتراجع عن مطالبته الدنانير من أجل عزرائيل الذي فرح كثيراً وقال: "ما أقدر لك اليوم على مكافأة، إلا أنني أبشرك أنك تعيش في الدنيا بعد المهذب عشر سنين، لكل دينار سنة، فسررتُ بذلك ورضيت به، وقيمت وأنا له من الشاكرين".⁽²⁾

إن السخرية لا تفارق منام الوهрани في أشد المواقف، واستنكار وقائع الدنيا يسيطر على جميع الحركات التي يقوم بها أهل القيامة، وفي أثناء ذلك يعتمد المؤلف معطيات الإسراء والمعراج والموروث الديني بعامية في تشكيل مقومات العالم الآخر، لكنه لا يبقى على قداستها، بل يخترقها اختراقاً كبيراً وفاضحاً، ويتمثل هذا الاختراق بأنسنة الملائكة وإدخالهم في صفات البشر في ملامح كثيرة من صفاتهم، فعزرائيل في منام الوهрани متروك له أمر قبض أرواح الناس كيف يشاء، فهو يستطيع أن يقبض روح الطبيب الماهر، ويُبقي على روح الطبيب الفاشل، كما أنه بمقدوره أن يهب من يرضى عنه سنوات زيادة في عمره، دون أن يأخذ الإذن من ربه في ذلك، وهكذا تختلط صور ملائكة الوهрани بصور البشر في كثير من الأفعال والتصرفات، "وذلك كله يخدم طبيعة الحدث المسرحي الساخر الذي يرمي إلى رسمه في منامه، علاوة على

1 . منامات الوهрани، ص 41، 40.

2 . م، ن، ص، ن.

النقد الذي أراد به إصلاح ذات المهدب ومن ثمة إصلاح المجتمع بإبعاده عن مثل هذه الصفات الدنيئة، والدعوة لتنشئة عوالم مجتمعية صالحة⁽¹⁾.

3. نقد الأدباء:

لم يسلم من سخرية الوهراني النقدية، أدباء وكتّاب عصره، ومن ذلك مثلاً انتقاده لطريقة ابن العميد الكاتب في الكتابة؛ الذي التزم السجع والبديع والجنوح إلى الزخرفة اللفظية والتأنق في الكتابة، فعلى الرغم من تربيته على عرش الكتابة في عصره، إلا أن الوهراني ذكره صريحاً في منامه، وعاب أسلوبه في الكتابة والإنشاء على لسان شعراء عصره وأدبائه، فثمة إشارة في أحد مشاهد منامه إلى رقعة منمّقة كتبها ابن العميد، وقد قرأ فيها شاعر الشام المشهور أبو الحسن بن منير الطرابلسي وقال فيها: "هذه رقعة رجل دهان عارف بجل الأصباغ وإنزال الذهب؛ لكنه جاهل بصناعة الكتابة ظاهر التكلف فيها يريد أن يتمم نقص الصناعة ويستر عوارها بالألوان المشرقة والأوراق المصبغة والتذهيب الرائق المليح، ومع هذا فلا يجوز أن ي كاتب بمثل هذا إلا القيان المعشوقات"⁽²⁾.

ولا يكتفي الوهراني بهذا الحكم المجحف، بل نراه يستطرد بعد هذا في نقده كتابات ابن العميد وذكر عيوبها، فيستدعي شاعراً آخر وهو طلائع بن زريك الملقب بالملك الصالح، وزير مصر، ويقول: "مع سخافة عقله وسكره من خمر الولاية قال يوماً في مجلسه لما عرض عليه الشيزاري قصائد الشعراء ورقاع المكديين من أهل الشام، وفي جملتها رقعة لابن العميد فيها سطر مكتوب بالأخضر اليانع، وسطر بالأصفر الفاقع، وسطر بالأبيض الناصع، وسطر بالذهب الخالص، وفي الرق الأحمر القاني مطرز الجوانب بالذهب الأبريز من صاحب هذه الرقعة يا زكي؟ فقال: رجل من رؤساء دمشق ومقدميهم، أحق الناس بالترويق في الأوراق، والتصحيف للألفاظ، ومعرفة أصناف الفواكه والثمار، فقال له ابن زريك: ما أدري ما تقول غير أنك سلبت

1 تجليات الإسراء والمعراج في النثر العربي، جمال مقابلة، ص175.

2. منامات الوهراني، ص34.

هذا المذكور فضل الفضلاء، ونسبته إلى الفلاحة والرعونة والجنون، ومع هذا فهي رقعة رجل مهين، تدل على جهل قائلها ومهانتها، ألا ترى أن الناس توصلوا إلينا بالفضل والبلاغة، وتوصل هذا الرجل بلعب البنات وزخارف الصبيان، لو كتب هذا الكلام الذي في رقعته على فخذ خروف سمين، وألقى على الطريق لأنفت من أكله الكلاب، ثم ناولها لبعض الفراشين وقال: ادفعها لجارك الفقاعي يلصقها على عتبة باب دكانه يستجلب بها الزبون.⁽¹⁾

يعمد الوهрани إلى هذا التمثيل ليسخر من هذه الشخصية التي تبحث عن التوبة مقابل رقعة خطية، إن الدلالة العميقة للنص في هذا السياق تتلخص في نقمة الوهрани بسخريته من اعتماد الأدياء بالمظهر الخارجي للكتابة والزخارف المتكلفة، التي يمارسونها في نصوصهم حتى تعدى ذلك الاهتمام بنوع الحبر والورق ممّا لا طائل من ورائه.

ولعل هناك دوافع شخصية تكمن وراء اختياره لابن العميد شخصية تمثل ذلك النوع من الأدياء، فصبّ عليها انتقاده اللاذع، واعتراضه بطريقته الساخرة التهكمية على أسلوبه واتهامه إياه بالجهل والتكلف، فلا نستغرب منه هذا القول، ولا سيما إذا عرفنا أنه لم يوفق في أن يصبح كاتبًا من كتّاب الدولة الرسميين المقربين، أو شاعرًا من شعراء البلاد المقدمين، فكسدت بضاعته الأدبية إزاء بضاعة ابن العميد والقاضي الفاضل والعماد الأصبهاني الراجحة، ولم تلق سلعته مع وجودهم رواجًا، وقد ألمح إلى ذلك قديمًا صاحب الوافي بالوفيات حين قال في ترجمته للوهрани: "قدم من المغرب إلى مصر وهو يدّعي الإنشاء فرأى القاضي الفاضل والعماد فعلم أنه ليس من طبقتهم".⁽²⁾

4. نقد الفلاسفة:

من المسائل الأخرى التي أثارها الوهрани في منامه، وسلط عليها سياط سخريته النقدية، مسألة الفلسفة ومعرفة الكواكب وعلم التنجيم، الذي يبدو أنه كان شائعًا في عصره، إذ رمى عددًا من العلماء بالفلسفة والعمل بأحكام

1. منامات الوهрани، ص 34، 35.

2. 4: 386.

النجوم، فأنهموا بالمروق عن الدين والانحراف عن عبادة الله، فوجدوا أنفسهم في منامه في خطر عظيم من تلك السخرية النقدية اللاذعة، لكونهم كانوا يخوضون في ما لا يُرضي الله عز وجل،⁽¹⁾ وعلى هذا فالشفاة التي يتمناها كل مؤمن لن تكون عن طريق شخصية فلسفية، وإنما ستكون بإذن محمد صلى الله عليه وسلم.

5. النقد السياسي والصراع المذهبي:

يُعدُّ المنام الكبير مرآة صادقة لعصر الوهراني بما يضح به من تيارات عقائدية وفكرية متناقضة ورؤى دينية متصارعة، فقد انعكست صدى تداعيات الأبعاد السياسية والصراعات المذهبية التي امتدت على طول رقعة الدولة الإسلامية في المنام الكبير للوهراني، وقد تجلت مواقف الوهراني السياسية والمذهبية والفكرية بوضوح في عدة مشاهد، متخذةً أبعادًا متباينة تجسد موقفه من جهة وموقف شخصياته من بعض القضايا السياسية والمذهبية من جهة أخرى، ومنها: جدل السنة والشيعة وصراع الفاطميين والأيوبيين وموالة آل البيت والأمويين، وغيرها من الخلافات المذهبية التي ظهرت على مسرح الأحداث السياسية الإسلامية وشغلت الناس في زمانه وقبله.

صوّر الوهراني الشيعة في موقف تهكمي لكونهم يطمعون في رحمة الله، وكذلك يرجون الشرب من حوض النبي صلى الله عليه وسلم ونيل الشفاة فيُصرِّح لأمر المؤمنين أنهم قوم لا يصلحون إلا في البدود والمواخير⁽²⁾ إن الوهراني في صدد وصف الشيعة وإعطاء صورة حقيقية عن أفعالهم وعباداتهم الباطلة،⁽²⁾ يسعى من هذه المقاطع السردية إلى تبيان عقيدة الشيعة وما مصيرها في العالم الآخر.

والوهراني بذلك يقصد إلى نقد كثير من جوانب التاريخ السياسي للدولة الإسلامية، ويوضح استمرار النزاع بين المسلمين اعتمادًا على ذلك التاريخ،

1 . ينظر: منامات الوهراني، ص 51، 50.

2 . ينظر : منامات الوهراني، ص 57 . 60.

حتى زمانه في القرن السادس الهجري، حيث الناس يتوزعون بين الدولة الفاطمية في مصر ممثلين للتشيع لآل علي، والأيوبيين وغيرهم في الشام ممثلين للتشيع لآل أمية، أو للسنة بصورة عامة. وهكذا يُعدُّ المنام الكبير نصًّا تجدّرت فيه آليات السرد الساخر المُعبّر عن شخص الوهرائي الذي تجرّع مرارة الخيبة، فجنح في كتابته إلى السخرية من الزمن وأهله وأمكنته، وإلى التصوير الفاضح للعورات النفسية والجسمية والعقلية لكثير من شخوصه الذين سلط عليهم جامٌ غضبه، من أجل معالجة بعض الظواهر الخُلقية التي كانت منتشرة آنذاك من جهة، ومن جهة أخرى يرد على كل من سخر منه، معتمدًا في كل ذلك على السخرية والنقد، ونرى أن اجتماعهما كانا أكثر نضجًا في هذا النص، وذلك لا يعني تجاهل النصوص الأخرى، فالوهرائي أحد مؤسسي البلاغة النثرية الهزلية بعد الجاحظ.

سادسًا/ نتائج الدراسة:

1. عاش الوهرائي في عصر برز فيه كتّاب كبار من أمثال: ابن العميد والقاضي الفاضل والعماد الأصفهاني، الذين سطع نجمهم في ظل ما كانوا يتمتعون به من نعمة السلطة والنفوذ والقوة، فعلم من نفسه أنه ليس من طبقتهم، ولا يستطيع أن يجاريهم وينافسهم، فأثر أن يعيش في الظل وعدل عن طريقة الجد وسلك مسلك الهزل والسخرية والتهمك في كتاباته.
2. يُعدُّ المنام الكبير الذي أبدعه الوهرائي من الآثار الأدبية الطريفة، وهو لون جديد من الألوان النثرية في الأدب العربي، نهج كاتبه فيه أسلوبًا متفردًا من حيث البناء والسرد ومعالجة الموضوعات التي تناولها عن طريق استرجاع قصة تخيلية جرت أحداثها في عالم النوم واللاوعي، تتضمن رحلة العالم الآخر.

3. إن لجوء الوهراني إلى تقنية المنام للارتحال إلى العالم الآخر، يعدُّ تأثراً جوهرياً بحادثة الإسراء والمعراج، وفي الوقت ذاته يشكّل حيلة فنيّة غنيّة بالإمكانات واحتمالات التجاوز، فما أجراه الوهراني في رحلته لا يُقبل إلا إذا كان صاحبه غير مسؤول عنه بوصفه مناماً، وهو بتلك الحيلة غير مسؤول عما قال.
4. طوّر الوهراني ما بدأ به أبو العلاء في غفرانه، ولا يخفى أثر المعريّ في الوهراني، إلا أنّ هذا الأخير ربما تفوق على سابقه في كثير من اللغات؛ لأنه تحرر من سيطرة المسائل اللغوية والأدبية التي قلّت من متعة قراءة رسالة الغفران، كما أنه عمد إلى اللغة الدارجة ومثّل شخوصه بطريقة مسرحية تجاوزت كثيراً طريقة تصوير المعريّ لشخصيات الغفران. (1)
5. صوّر الوهراني في نصوصه التي جمعها في كتابه- والتي من بينها هذا المنام الكبير- بصدق وبعبارة قوية بعض جوانب الحياة في المجتمع العربي في عصره، فهي مرآة عاكسة يطلّع من خلالها القارئ على واقع المشرق في العصر الأيوبي، بما يضح به تيارات عقائدية وفكرية متناقضة ورؤى دينية متصارعة.
6. يتبين لنا من خلال نص المنام الكبير أن الوهراني يطلق صرخة احتجاج يُعلن فيها ما بلغه المجتمع العربي من فساد، وانحلال خُلقي وتظاهر بالمظاهر الفاسدة، متخذاً من السخرية وسيلة تأديبية.
7. حوى المنام الكبير شعراً وحكماً وأمثلةً كثيرة، دلت في مجموعها على وعي الوهراني ومعرفته الواسعة بقضايا اللغة والأدب والنقد. ختاماً، نرجو أن نكون قد ألمنا بجوانب الموضوع المثار في هذه الورقة، فكشفنا عن قدرة الوهراني على الإسهام في مجال الكشف عن المظاهر المزيّنة، والنقد والتوجيه بواسطة السخرية التي تكتنفها المتعة بالحجة، والتي تنفذ في صميم النفس بهدوء، فتشير إلى مواضع الظلم، وتحث المشاعر

1. ينظر: تجليات الإسراء والمعراج في النثر العربي، جمال مقابلة، ص175

الإنسانية ضد الخوف؛ لأن الغاية الكبرى من السخرية تحقيق الوعي وإيجاد اليقظة.

المصادر والمراجع

1. الأعلام، للزركلي، بيروت، دار العلم للملايين، ط5، 1980م.
2. تجليات الإسراء والمعراج في النثر العربي، د. جمال مقابلة، دار أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، ط1.
3. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعماد الحنبلي، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، د.ت.
4. مجلة علامات في النقد، 2008م، الجزء: 44، المجلد: 11 .
5. مصر والشام في عصر الأيوبيين، د. سعيد عبد الفاتح عاشور، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د. ت.
6. معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض،
7. مقدمة للشعر العربي، أدونيس، الطبعة الثالثة، دار العودة، بيروت 1979،
8. المنامات في الموروث الحكائي العربي، دراسة في النص التعالي والبنية السردية، د. دعد الناصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2008م.
9. منامات الوهрани ومقاماته ورسائله، للوهрани، تحقيق: إبراهيم شعلان، ومحمد نعش، منشورات الجمل، ط1 كولنبا، ألمانيا، 1998م
10. الوافي بالوفيات للصفدي، باعتناء هلمون ريتز، دار النشر فرانز شتاير، بفيسادن، 1962م.
11. وفيات الأعيان وأنبياء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.